عنوان المداخلة:

"دلالة المصدر وأهميته في البحث التاريخي"

د. قاسي فريدة أستاذ محاضر "أ"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

البريد الإلكتروني: kacifarida@yahoo.fr

ملخص

ليس التاريخ علما بالواقع بل معرفة بخبر عن الواقع فهو لا يبحث في حركة الإنسان في الماضي بل يسلط الضوء على المصدر الذي يستقي منه معرفة هذا الماضي ورواية أخباره، فما حدث في الماضي هو "التاريخ الواقع" وما بقي في الحاضر هو "التاريخ المسجل". والمصدر التاريخي هو المادة الأولية لصناعة المؤرخ يتيح له فهما عميقا للماضي وإقرارا للحقائق التاريخية الموثوقة. من هنا جاءت إشكالية هذه الورقة البحثية لتسلط الضوء على أهمية وضرورة توظيف النص والوثيقة في البحث التاريخي.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الماضي، المصدر، المؤرخ، البحث التاريخي.

Abstract

History is not a science of reality, but rather knowledge of information about reality. It does not investigate human activity in the past, but rather sheds light on the source from which knowledge of this past is derived and its news is narrated. What happened in the past is "actual history," and what remains in the present is "recorded history." Historical sources are the primary material for the historian, enabling a deep understanding of the past and the establishment of reliable historical facts. Hence, this research paper aims to highlight the importance and necessity of utilizing texts and documents in historical research.

Keywords: history, past, source, historian, historical research

مقدمة

إن غاية التاريخ هو إدراك الماضي كما كان لا كما نتوهم أنه كان، وكذلك هو ليس تصوير الماضي كما يجب أن يكون أو كما نريده أن يكون، فالشعوب في مراحلها البدائية غلب على رواية أحداث ماضيها الوهم على العقل والخيال على النقد والتصور على التحقيق، تتناقل هذه الأحداث مضخمة صاخبة مفعمة بالبطولات فتروي الخرافات وتنشد الملاحم ولا تلتزم بالواقع كما حدث فعلا إلى أن جاءت الوثيقة لتحرر الماضي من هذه الأوهام وتلك الخيالات ولتجابه هذا الماضي وتخبر عنه بأجهزة النقد والتحقيق والغاية هي إثبات الحقيقة التاريخية.

1. مفهوم التاريخ

التاريخ علم متنوع المشارب والمقاصد، معقد ومركب، شأنه في ذلك شأن البشر الذين يهتم التاريخ بتسجيل أفعالهم، وعدم قدرة المؤرخين على التحديد الدقيق لكلمة "تاريخ" ينبع من حقيقة أن التاريخ مثل الأدب والفلسفة والفنون طريقة للنظر إلى التجربة الإنسانية سواء في حياة الأفراد الذين يشكلون أجزاءها او إلى حياة المجتمع الذي يمثل المجموع.

وهناك تعريفات عديدة لعلم التاريخ واختلف اللغويون حول أصل كلمة "تاريخ" هل هي عربية أم معربة فمنهم من قال إنها "عربية" كالأصمعي والبعض الآخر قالوا أنها فارسية مأخوذة من "ماه روز" ومعناها حساب الشهور والأيام حسب القمر، وذكر آخرون أن لفظة "تاريخ" مشتقة من العبرية بمعنى "القمر" أو "يرخ" بمعنى الشعر، وذهب آخرون إلى أن كلمتي "أرخ" و"ورخ" ذات أصول جزيرية أكدية وفينيقية تعنيان الشهر والتوقيت.

وإذا أعدنا كلمة "التاريخ" لجذرها الثلاثي يكون هذا الجذر "أرخ" قد دل على الزمن وحدوث الأمر وقياسا على ذلك قالوا: أرخ الكتاب ليوم كذا أي أنه كتبه في يوم كذا أو بوقت

كذا، ولما كان قلب الهمزة واوا أمرا شائعا في اللغة العربية فقد جاءت كلمة "أرح" على شكل "ورخ"، وقد أوضح الشيخاوي هذا التعدد في معاني الكلمة حيث أشار إلى أن لفظة تاريخ في اللغة تعني الإعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب أي بينت وقت كتابته، وقال الجوهري أن التاريخ تعريف الوقت و التوريخ مثله، يقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاقه من "الأرخ" -بفتح الهمزة و كسرها- وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا، وقيس تقول أرخته تأريخا، وهذا ما يؤكد أن اللفظة عربية[1].

هذا بالنسبة للمفهوم اللغوي للفظة تاريخ أما المفهوم الاصطلاحي فإن أغلب المؤرخين اتفقوا على أن التاريخ هو بحث واستقصاء لأخبار الناس وحركتهم والنظر في أحوالهم الماضية، أما موضوعه فهو الحياة الإنسانية في امتدادها الزمني منذ بدء الخليقة إلى اليوم وما يحكم هذه الحياة من عوامل وأسباب.

كذلك تستخدم الكلمة بمعنى دراسة المسيرة الحضارية لبني الإنسان أو الماضي الإنساني من أجل الكشف عن غموض هذا الماضي لتحقيق المعرفة بالذات الإنسانية.

وفي تراثنا العربي الإسلامي هناك من حدد بدقة المفهوم الذي تدل عليه كلمة تاريخ لتكشف عن مدى فهم المسلمين للتاريخ كعلم وعن مدى إدراكهم لوظيفته في خدمة المجتمع البشري، فالمؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي في كتابه: "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" يعطي تعريفا جامعا مانعا لمصطلح التاريخ حيث يقول:"... والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم ...".

أما عبد الرحمان بن خلدون فيرى أن التاريخ"...في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا في الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق...".

أما بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين فقد تطور مفهوم "التاريخ" عندهم ابتداءا من القرن الثامن عشر حيث عرفه "مونتسكيو" بأنه دراسة لعادات الناس، وأن الاهتمام ليس فقط بالوقائع السياسية بل أيضا بطور العلوم والفنون والصناعة، فالتاريخ لا يعد مجرد تكوين لأحداث الماضي بل إنه يفهم ويكتب على أسس علمية سليمة فنحصل على تاريخ صادق بالقدر الممكن.

ويحرص فوستيل دي كولانج على إعطاء التاريخ مكانته في مجموعة المعارف البشرية وأن يرتفع تقديره كعلم في قوله: "التاريخ علم، إنه لا يتخيل، إنه يرى فقط ... وهو كغيره من العلوم قوامه الكشف عن حقيقة الوقائع ثم تحليلها ودرس التقارب فيما بينهما".

أما "كارا" فيذهب أن التاريخ عبارة عن مجموعة كاملة من الحقائق المؤكدة التي تتوفر للمؤرخ من خلال الوثائق والشواهد. وبالنسبة ل "مارك بلوخ" فالتاريخ لا يعني عنده جمع وتكديس أخبار الماضي الكثيرة والمتنوعة، بل هو علم البشر عبر الزمن وبالتالي يشمل مجمل الخبرة الإنسانية.

إذن التاريخ هو الذي يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها ولكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث وإنما يحاول عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث وتوضيح علاقة السببية بينها أن يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المتنوعة وأن يبين ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ إنه يحاول اكتشاف لقوانين الموجهة لحركة هذه المجتمعات والدول والنهضات وأسباب صعودها وسقوطها أي استنباط القوانين العامة والثابتة التي تتطور بموجبها وهو ما نسميه بفلسفة التاريخ.

2. الوثيقة التاريخية

هي الشاهد الموثوق الذي ينقل للأجيال تفاصيل الحدث التاريخي بكل أبعادها الزمانية والمكانية كما حدثت أولا دون تغيير محتمل ينتج عن تطور أو تدهور أو تزييف أو تحريف لهوى في النفس، أو دون قصد نتيجة جهل ونسيان، ومن جهة أخرى فهي كل ما هو منقوش أو مرسوم أو مكتوب أو مطبوع أو مخطوط والذي يصدر من أي دائرة أو مؤسسة رسمية تقرر الاحتفاظ به لأهميته وفائدته.

وتعد الوثائق من المصادر الأصلية الأساسية لدراسة التاريخ، ومواد الوثائق متنوعة منها ما هو مادي مصنوع من الورق أو الجلود أو من الطين والأحجار والمعادن، أو من الأخشاب أو من الزجاج، فقد استخدم العراقيون القدامى الطين كمادة للكتابة واستخدم المصريون الكتابة على الحجر وأوراق البردي، وكتب في الحرير الأبيض والرق، أما الفرس فقد كتبوا على جلود الجواميس والبقر والغنم وقد استخدمت تلك المواد للتدوين والكتابة عبر العصور التاريخية القديمة.

كما تصنف المسكوكات والنقود كمادة أساسية ذات أهمية في الدراسة الاقتصادية فيما تعلق بالتجارة وحركة المبادلات التجارية، وكذلك المعلومات الواردة على القطع النقدية فهي تلخص جوانب عديدة من حياة المجتمعات.

كما تشمل الوثائق الأصول المدونة التي تحتوي على معلومات تاريخية وكذلك المصورة أو حتى الروايات الشفوية، إضافة إلى المخطوطات و المذكرات المحفوظة في المتاحف والمكتبات، وكذلك الوثائق الرسمية وشبه الرسمية مثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات، ولا يكون تصنيف الوثيقة بمحتواها السياسي أو الاقتصادي وإنما تتحدد بمصدرها وموضوعها المتخصص فيما إذا كانت الوثيقة مادية متحفية أو أرشيفية وثائقية، من جهة أخرى لا ينصرف مفهوم الوثيقة إلى المراسيم والقرارات وإنما ينطبق أيضا على مراسلات العلماء والأعلام وخطوطهم وإجازاتهم وتوقيعاتهم.

فموضوع المخطوطات هو متعلق بتراث الأمة وعلومها ومعارفها أثناء ازدهارها وبالتالي لابد من بذل الجهود لإحصائها وتحقيقها والاستفادة منها، فإحياء التراث العربي في مختلف العلوم لا يتأتى إلا بتحقيق النصوص ودراستها.

ويضاف إلى المخطوطات كتب الرحلات، فرغم كون هذا المصدر فرعا من فروع الكتابة الأدبية خاصة وأنه يضم الرواية والقصة والسرد إلا أنه ذا قيمة تاريخية كبيرة خاصة وأن كتب الرحلات استندت إلى المشاهدة والملاحظة المباشرة وقد احتوت في مضامينها على الكثير من المعطيات التاريخية والجغرافية التي أغفلتها المصادر المكتوبة الأخرى، فأدب الرحلات

قد أماط اللثام وكشف جوانب مهمة عن حياة المجتمعات وهو ما يؤدي إلى إثراء المعرفة التاريخية.

إن البحث في الوثائق وكشفها من العمليات الأساسية، فوجود الوثائق الهامة هو الذي يحدد إمكانية الاستمرار في البحث أو العدول عنه إلى موضع آخر، والباحث الذي يكتب تاريخا دون أن يحصل على مجموعة من الوثائق الأساسية الجديدة أو التي لم يكن قد سبق استخدامها استخداما علميا، يكون عمله ناقصا غير مكتمل وتتضاءل أو تنعدم قيمته العلمية.

ويعد المنهج الوثائقي من أقدم مناهج البحث فهو يتطلب تحديد مشكلة البحث وتجميع الحقائق والمعلومات المتعلقة بها، وتحديد مصادر هذه الحقائق الأولية والثانوية، ثم تصنيف تلك الحقائق وتحليلها وإيجاد العلاقة فيما بينها ثم عرض النتائج وتفسيرها، وتكون مصدر هذه المعلومات من الوثائق والسجلات ذات الأشكال المتعددة والتعليقات الشخصية المكتوبة والشفوية، ويجب على الباحث -بعد أن يحدد الوثيقة- أن يقيمها خارجيا وداخليا للتأكد من أصالتها وعلاقتها بموضوع الدراسة وقبولها كشاهد على الحدث التاريخي -موضوع الدراسة-

إن أهمية الوثائق تكمن أساسا في بناء الحقائق التاريخية لأنها تمثل الأصول الصحيحة والدقيقة ما يكمل حلقات التاريخ المفقودة فكل فعل لا يخلف أثرا أو طمست معالمه فهو أمر ضاع على التاريخ فحيث لا وثائق يكون التاريخ مظلما.

3. البحث التاريخي

هو ممارسة فكرية في مسألة تاريخية تستهدف عن طريق استعمال أصول وقواعد منهج البحث التاريخي تحويل تلك المسألة من قضية غامضة غير معروفة إلى بحث تاريخي شيق أساسه التحري والإنغماس في الحقائق لأجل التعرف على طبيعتها وتفسيرها. ومن الناحية المنهجية فإن هذا التعريف يشترط توفر ثلاثة عناصر جوهرية في عملية البحث وهي:

- باحث متدرب على عملية الكتابة علميا (وفق تقنيات المنهج التاريخي)
- عدد معين من النصوص التاريخية التي تأخذ شكل مصادر
- طريقة كتابية يتم بموجبها كتابة وتطوير الموضوع المخصص للدراسة

والبحث التاريخي الجاد هو أكبر من مجرد إعادة ما قد كتب بدقة في صفحات الآخرين حول مسألة تاريخية معينة، بل هو الذي يتوخى صاحبه الإجابة عن الإشكاليات التي تحتاج للإثراء والمعالجة والإيضاح لتكون لذلك مبادرته خطوة لتقدم البحث التاريخي، وهو ما يؤكده المؤرخ الإيطالي "كروشي": "بأن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله وأن العمل الأساسي للمؤرخ ليس التدوين وإنما التقويم حتى يعرف قيمة الأشياء التي تستحق التدوين.

وتتجلى أهمية البحث العلمي في أنه عنصر عام لاستجلاء خصائص الماضي والحاضر والعلاقات المتفاعلة بينهما وعلاقة العلة والمعلول، إذ أننا نلجأ للبحث في التاريخ من أجل فهم الحاضر، ثم بالحاضر لفهم الماضي ومنه تتجلى المعرفة التاريخية مثلما أكده "ميشال دوسيرتو" الذي دعا إلى توثيق الأحداث العابرة التي تشكل تاريخا مفتوحا بصفة دائمة، فمظاهر الإضطراب الإنساني الحاضر في المذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة التي تقتسم

الأفراد والجماعات والأمم وتوجهها وجهات متباعدة وتدفع بهم إلى العداء والخصام، وجدنا لها تعليلا معينا في الماضي والعوامل التي تسببت في ذلك وفهما خاصا لأسلوب مجابهته في عملية بناء الحاضر وإعداد المستقبل.[2]

كما تفيد الدراسات التاريخية في تنمية المعرفة وفهم العلاقات الإنسانية التي تساعدنا كثيرا على إدراك حقيقة المشاكل الحالية كما أنها تساعدنا على إصدار الأحكام وتمدنا بقدرات الإقناع بالحجة والمنطق والعقل[3]، ذلك أن الوعي بالتاريخ لا يهيكل رؤيتنا للعالم وفهمنا لوجودنا في الزمن المتحرك فقط بل يكفل لنا علاقة سوية مع الماضي من خلال الأخذ بمسببات الظواهر والاستفادة من تجارب سابقينا، إن زيادة البحث تؤدي إلى تنبيه الوعي التاريخي ما يجعل المفكرين والفلاسفة والعلماء يهيبوا بالمزيد من التساؤل عن الماضي واستجلاء معانيه وإلى التطلع بشوق وإلحاح إلى استكشاف ما يتضمنه من عناصر استقرار يمكن أن يركن إليها في اضطراب الحاضر والمستقبل.

وقد لاحظ المفكر الروسي Berdayer Nicolas في كتابه "the meaning of history" أن عهود النكبات في التاريخ الإنساني كانت دائما حافزا إلى التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرة للإهتمام في تفسير التاريخ وتعليله فأغسطينوس الذي عاصر نكبة من أعظم النكبات وهي تداعي العالم القديم وسقوط روما وضع أول مذهب في تعليل التاريخ كان له أثر عظيم في المذاهب التي تلته وكذلك كان عصر الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية. وفي التراث العربي نلاحظ أن جهد "ابن خلدون" الجبار في العمران البشري واستخراج قوانين التطور

الاجتماعي جاء في عهد كان فيه العالم الإسلامي المترامي الأطراف قد انقسم دولا متناحرة، أغارت عليها جحافل الغزاة، وكانت مدنيته قد سارت خطى واسعة في طريق الانحطاط والإنهيار، فأثار هذا كله تساؤلات خطيرة -عند ابن خلدون- عن نشوء الاسم والحضارات وتطورها وتداعيها، فجاءت مقدمته الخالدة من أبرز آثار التفكير التاريخي والإجتماعي[4].

كما تعكس البحوث التاريخية واقع واستمرار الوجود الإنساني عبر الزمن بمنجزاته السياسية والإقتصادية والإجتماعية وما تركته هذه المنجزات من أثر في تطور الحضارات في الماضي بغية الاستفادة منها في الحاضر والمستقبل [5]، وبالتالي ساهمت العديد من هذه البحوث على فهم حركة التطور والتبدل المستمر للإنسان -في شتى المجالات- وتحقيق التقدم نحو الابتكار والإبداع المعرفي المبني على جهد السابقين والمكمل لعمل الأوائل.

والخلاصة أن دراسة التاريخ انتقلت إلى قراءة أحداث الماضي من أجل تسليط الضوء على ما يخدم منها الجماعة الإنسانية في حاضرها ومستقبلها.

4. المصدر وصناعة التاريخ

يقول أوكشوت :"التاريخ هو تجربة المؤرخ، إنه ليس من صنع أحد باستثناء المؤرخ، وكتابة التاريخ هي الطريقة الوحيدة لصنعه"[6] ، فالمؤرخ يتعامل مع الزمن التاريخي بكيفية مستمرة وهو ينتقل بسرعة وباستمرار من الحاضر إلى الماضي القريب أو السحيق ويغوص في سير الأحداث التي وقعت ويصطدم بمصطلحات عديدة مثل التعاقب والفترة والمرحلة والتزامن

والتغير، والزمن التاريخي ليس شيئا ملموسا فهو ليس في الحقيقة سوى نتاج لعملية بناء وبالتالي فالمؤرخ لا يستحضر الماضي - من أجل الاستحضار فقط – وإنما من أجل إعادة بناء ذلك الماضي على خلفية أسئلة الحاضر وبالتالي دراسة الزمن الماضي.

ومنه فصناعة التاريخ تنصرف إلى الجهد المبذول من أجل غاية معينة والمنضبط بقواعد المنهج التاريخي على أساس أنه الطريق الموصل إلى الحقيقة التاريخية وهو الذي يقوم في الجوهر على إعادة البناء التصوري للماضي من وقائع الحقائق المستخلصة عن طريق الفحص والتحليل والتدقيق وغير ذلك من متطلبات التدوين التاريخي. وظن التأريخ تعبيرا عن المعنى ذاته فصناعة التاريخ هي نتيجة تطور طويل المدى بدأ منذ أن أخذ الإنسان يلتفت إلى ماضيه ويسجل حوادثه إلى أن قوي فعله في الإنتاج التاريخي خلال القرن التاسع العشر إلى القرن العشرين إلى تديد نظري للصناعة التاريخية.

إن الأسلوب الذي تنطوي عليه هذه الصناعة يتكون من سلسلة الجهود المحكمة والمتتابعة تبدأ من اكتشاف الأثر أو الوثيقة (المصدر التاريخي) التي خلفها الماضي وتنتهي بالتأليف التاريخي.

إذن فالصناعة التاريخية يظهر فعلها في استعادة الماضي وأثرها في الموقف الذي تتخذه منه، ويستخرج الماضي من الآثار التي خلفها السلف فهي "مصادر التاريخ" يوجد بوجودها ويضيع بضياعها، وعلى هذا فالخطوة الأولى من خطى الصناعة هي البحث عن المتعلقة بموضوع المؤرخ سواء مصادر مادية (آثار ونقوش وأبنية وألبسة وأواني ونقود) أو وثائق مكتوبة دون فيها السلف خوارج نفوسهم وضروب معاملاتهم أو التي سجلوا فيها أحداث زمانهم، فكل أثر

مادي أو أدبي خلفه الماضي هو مصدر من مصادر التاريخ، وأهم هذه الآثار هي الوثائق المكتوبة - بصفة خاصة – التي سجل فيها السلف الأحداث السابقة و المعاصرة.

إن التقدير المتزايد لحقيقة اعتماد الصناعة التاريخية على المصدر الأولي هو الذي يدفع المؤرخ إلى التفتيش عن هذه الآثار وجمعها وحفظها من التلف والضياع وتيسير الوصول إليها، ومن هنا كانت المتاحف والمكتبات ودور الأرشيف تتسابق للبحث عن الآثار المخطوطة وغير المخطوطة واقتنائها وصيانتها ووصف الفهارس الضخمة وتيسير نقلها وتصويرها بالوسائل المستحدثة لجعلها في متناول الباحثين.

يعمد المؤرخ خلال عملية صناعة التاريخ إلى استقصاء المصادر الأساسية ثم يسلط عليها عملية النقد، فهو لا يأخذ الوثائق على علاتها بل يعتمد بأساليب من النقد والتمحيص إلى فحص كل منها لتبين قيمتها ومدى إمكان استخراج أخبار الماضي منها.

وهذه الأساليب النقدية تنقسم إلى:

- النقد الخارجي ويتجه فيه الباحث إلى تثبيت نص الوثيقة والتعرف إلى مؤلفها وزمانها ومكانها
- النقد الداخلي والذي يتناول فيه روايات النص وحليلها وفهم معناها وتقدير اتجاه مؤلفها ومدى تسرب الخطأ إليها.

ودائما يسعى المؤرخ إلى استخراج النص الأصلي أو إلى أقرب صورة ممكنة لهذا النص بعد الاطلاع على النسخ والوثائق المتعددة.

وهذا العمل النقدي جد مهم في الصناعة التاريخية حيث يتطلب معارف متنوعة وإلمام بالخط والورق والحبر وسواها من وسائل الكتابة والنسخ، كما يعتمد أدلة من الوثائق ذاتها أو من خارجها ليفسر على الواقعة التاريخية.

وبعد تثبيت النص يتساءل الباحث عن المؤلف من هو؟ هل هو مؤلف الوثيقة فعلا؟ بمعنى هل الوثيقة صحيحة النسبة إليه أم مدسوس فيها مزورة؟ وما هو مبلغ التزوير فيها، ويصاحب التساؤلات عن المؤلف تساؤلات عن زمانه ومكانه، وعن زمان الوثيقة الأصلية ومكانها وعن كل ما يساعدنا على وضعها في موضعها الصحيح وتصور الأحوال التي تثبت فيها و التطورات التي تعاقبت عليها.